الشخصية الإسلامية المتميزة من منظور قرآني
(مقوماتها وكيفية بنائها)

د. فرج حمد سالم الزبيدي*

تاريخ وصول البحث: 2014/9/2م **تاريخ قبول البحث: 2014/12/18م**

ملخص

تمّ في هذه الدراسة إلقاء الضوء على طريقة بناء الشخصيّة الإسلامية المتميّزة في القرآن الكريم. وحددت مقومات الشخصيّة الإسلامية في القرآن باثنين فقط، وهما:

الأول: المقوّم الفكري، ويتمثّل بالإيمان وما يتعلّق به.

الثاني: المقوّم السلوكي، ويتمثّل بالعمل الصالح.

ركّزت الدراسة على توضيح الإرشادات القرآنية في الآتي:

1. إبراز دور العقيدة في بناء المقوم الفكري وضبطه في الشخصيّة الإسلامية.
2. بيان أهميّة الربط بين المقوّم الفكري (الإيمان) والمقوّم السلوكي (العمل) لإنتاج شخصية إسلامية متميّزة.
3. إبراز أهم القواعد الضابطة للسلوك في القرآن الكريم.
4. ضرورة تقبّل حصول ثغرات في سلوك الشخصيّة الإسلامية كونها غير معصومة.

كلمات مفتاحيّة: بناء الشخصيّة، مقومات الشخصيّة، الشخصيّة الإسلامية في القرآن، الفكر والسلوك.

Abstract

This study sheds light on the way of building personal excellence in the Islamic Qoran. And identified elements of personal Islamic Qoran in only two, namely:

First: Righting the intellectual, and faith.

Second: Ingredient behavioral, and good work .

The study focused on clarifying the instructions in the Qur'an as follows:

1. Highlight the role of belief in the building and adjust the rectifier intellectual in Islamic personal.
2. The statement the importance of linking the rectifier intellectual (faith) and the rectifier behavioral (work) to produce a distinct Islamic character.
3. To highlight the most important rules governing the behavior in the Koran.
4. The need to be accepted for gaps in the behavior of Islamicpersonal being is infallible.

Keywords: character building. Personal ingredients. Islamic character in the Koran. Thought and behavior.

مقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين، ومن اهتدى بهديه واستنّ بسنته إلى يوم الدين. وبعد:

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: 29]. أشارت هذه الآية ونظيراتُها في

* أستاذ مساعد، قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الحسين بن طلال.

القرآن؛ إلى أنّ مهمّة المؤمنين بالدرجة الأولى في التعامل مع القرآن الكريم –خاصة ذوي الألباب والمفكرين منهم–، هي قراءة القرآن الكريم قراءة تدبّرية لا حفظيّة فقط، ذلك أنّ القراءة التدبريّة هي التي تنتج الفهم والعمل، وتجعل الأفعال مطابقة للأقوال، وبالتالي تساعد في بناء الشخصية الإسلاميّة المتميزة التي تقرأ القرآن بقصد فهم أوامرهِ ونواهيه وتطبيقها والعمل بموجبها، قال الطبري: "ليتدبَّروا حُجَج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به"[(1)]. فالأمة في هذا العصر لا تحتاج إلى نسخٍ مكررة من القرآن المقروء، بل تحتاج إلى نماذج حيّة من القرآن العملي التطبيقي، اقتداءً بمنهج من أُنزل عليه القرآن ﷺ الذي لخصته عائشة –رضي الله عنها– بقولها عندما سُئلت عن خُلقه ﷺ: "كان خُلقه القرآن"[(2)]. والمقصود (بالخُلُق) هنا السلوك (العمل).

ولقد ثبت تاريخياً أنّ الصحابة الكرام ﷺ كانوا يتميزون بشخصيات إنسانية راقية، تحمل فكراً مستنيراً وسلوكاً منظماً منضبطاً. تلك الشخصيات التي علمت البشرية الفضيلة، وبنت حضارةً راشدة. وما ذلك كلّه إلا بعد أن طرحوا أفكار الجاهلية وقيمها، واستبدلوها بأفكار الإسلام وعقائده الإيمانية، وبنوا شخصياتهم بموجب تعاليم القرآن الكريم وقيمه، وهدي خير الخلق محمد ﷺ.

سبب اختيار الموضوع:

نجد في هذه الأيام كثيراً من المسلمين الذين يحفظون القرآن ويحافظون على قراءته، وفي الوقت نفسه لا يوجد لديهم التزامٌ بتطبيق كثيرٍ من أوامر القرآن ونواهيه وأحكامه، ممّا يدلّ على ضعف أثرِ المكوّن القرآني في بناء شخصياتهم، فأصبحت شخصياتهم متناقضة؛ لديها انفصال بين الإيمان والعمل والفكر والسلوك.

والتفسير الأقرب لهذا الواقع؛ أنّ قراءتهم تلك لم تكتمل فيها شروطُ القراءةِ التدبّريةِ، وإنّما كانت ترتيليةً حفظيةً، لم تصل إلى حدّ التأثير المباشر في بناء المركب العقليّ والنفسيّ المكوِّن لشخصياتهم. وفي هذا المعنى قال الحسن البصري –رحمه الله–: "والله ما تَدَبُّرُه بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنّ أحدَهم ليقول: قرأتُ القرآن كلّه ما يُرى له القرآنُ في خُلقٍ ولا عمل"[(3)].

لذا؛ جاءت هذه الدراسة الموسومة بـ (الشخصية الإسلامية المتميزة من منظور قرآني "مقوماتها وكيفية بنائها")؛ لتلقي الضوء على كيفية بناء المقومات الفكريّة والسلوكيّة للشخصية الإسلامية، والكشف عن الخطوط العريضة للإرشاد القرآني والمنهج النبوي في كيفية الربط بين الإيمان والعمل والفكر والسلوك؛ للوصول إلى بناء شخصيّة إسلامية متميّزة.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة كونها تلقي الضوء على كيفية استثمار تدبّر الآيات القرآنية في بناء المقومات الفكريّة والسلوكيّة للشخصية الإسلامية المتميّزة، وبالتالي تحقيق الربط بين الفكر والسلوك وبين الإيمان والعمل. حيث غاب هذا الجانب عن كثير من مسلمي هذا العصر.

أهداف الدراسة: تتمثّل بالآتي:

1. التأصيل القرآني لطريقة بناء الشخصية الإسلامية المتميزة.
2. بيان مفهوم: الفكر، والسلوك، والشخصية، في القرآن الكريم.
3. بيان أثر الفكر على إنتاج السلوك وتوجيهه وضبطه.

4. تحديد غايات السلوك ومعززاته من منظور قرآني.

إشكاليّة الدراسة:

يمكن صياغة إشكالية الدراسة بالأسئلة التالية:

1. ما مفهوم (الشخصيّة)؟. وما هي مقومات الشخصية بشكل عام؟
2. ما أثر تدبّر القرآن الكريم في تحديد مقومات الشخصيّة الإسلامية؟
3. ما دور العقيدة الإسلاميّة في بناء المقوّم الفكري في الشخصيّة الإسلامية المتميزة؟
4. ما هي دوافع السلوك؟ وما أبرز القواعد الضابطة للسلوك في القرآن الكريم؟
5. ما المنهج الأمثل الذي أرشد إليه القرآن لبناء الشخصية الإسلامية المتميزة من خلال الربط بين مقوماتها؟

الدراسات السابقة:

لم يجد الباحث دراسة مستقلة تُعنى بمفهوم الشخصية الإسلامية المتميزة وبنائها وَفقَ مقوماتها الفكرية والسلوكية تأصيلاً من القرآن الكريم مباشرةً. لكن المكتبة الإسلامية لا تخلو من بعض الدراسات المتعلقة ببناء الشخصية الإسلامية بشكلٍ عام، ومن أهمها:

أولاً: "شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة" للدكتور محمد علي الهاشمي. وهو كتاب جيد ومفيد في موضوعه، جرى فيه التركيز على كيفية التعامل المثلى للشخصية المسلمة مع (الله والذات والآخر)، أمّا الجانب التأصيلي لبناء الشخصية المسلمة فلم يكن هو المقصود في الكتاب.

ثانياً: بحث "مقومات الشخصية المسلمة" للدكتور عبدالله بن محسن الحضرمي (1400هـ). تحدّث فيها المؤلف عن أمور مهمّة تتعلق بالشخصية الإسلامية، وهي أقرب للدراسة الوصفية التاريخية أكثر من كونها تأصيلية.

ثالثا: "بناء الشخصية في القصة القرآنية" للدكتور مصطفى عليان. وهي أقرب الدراسات إلى موضوع دراستي، إلا أنّها محددة في آيات القصص، فركّزت على بيان مقومات الشخصية الإسلامية من خلال نماذج شخوص القصة القرآنية من: أنبياء ومؤمنين وكافرين.

وقد تميزت دراستي عن الدراسات المذكورة في الجانبين المنهجي والتأصيلي، فمن حيث المنهج، فقد قمت ببناء الشخصية على مقومين فقط هما (المقوم الفكري العقلي = الإيمان، والمقوم النفسي = الرغبات والسلوك)، وانفردت كذلك ببيان ضوابط السلوك في القرآن ومعززاته، أما من حيث التأصيل فقد قامت دراستي على منهج التأصيل المباشر لمقومات الشخصية الإسلامية المتميزة من القرآن الكريم مباشرة، وهو الجانب الذي افتقرت إليه الدراسات السابقة على وجه الاستقلال.

خطّة الدراسة:

بُنيت خطّة الدراسة على مقدّمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة:

- **المقدّمة:** تضمّنت أسباب اختيار الموضوع، وأهميته وأهدافه، وإشكاليّة الدراسة، وخطّتها.
- **التمهيد:** تحدّث حول: مفهوم الشخصية. وتحديد مقومات الشخصيّة الإسلامية في القرآن الكريم.
- **المبحث الأول:** تحدّث حول إرشاد القرآن الكريم لبناء المقوم الفكري في الشخصيّة الإسلامية. وتوضيح مفهوم التفكّر

والتعقّل والعلاقة بينهما، وبيان مجال التفكير وحدوده في القرآن، وإبراز دور العقيدة الإسلاميّة في بناء المقوّم الفكري في الشخصيّة الإسلامية المتميزة.

- **المبحث الثاني:** تناول كشف عن توجيه القرآن في كيفية بناء المقوم السلوكي في الشخصيّة الإسلامية. فتحدّث عن تفسير السلوك من حيث المفهوم والدوافع، وبيان أهم القواعد الضابطة للسلوك في القرآن.
- **المبحث الثالث:** تَطَرّقَ لبيان كيفيّة بناء الشخصيّة الإسلامية من خلال الربط بين مقوماتها الفكريّة والسلوكيّة. فتناول في المطلب الأول أهميّة العقيدة في ضبط المقوّم السلوكي وضبطه. وتضمّن مخططاً بيانياً توضيحياً لخطوات بناء الشخصية الإسلاميّة المتميّزة باقتران مقوماتها.
- **الخاتمة:** تضمّنت أهم النتائج والتوصيات.

تمهيـد:

أولاً: مفهوم الشخصيّة:

الشخصيّة لغةً: مشتقة من الشخوص، بمعنى الظهور والتبدّي أمام الآخر. والشخص: هو سواد العين، وكلُّ جسمٍ له ارتفاع فهو شخص. قال ابن فارس: "الشين والخاء والصاد أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ارتفاع في شيء. من ذلك الشّخص، وهو سوادُ الإنسان إذا سما لكَ مِن بُعد. ومنه أيضاً شُخُوص البَصَر"[4].

أمّا في الاصطلاح: فقد عرّف علماء النفس الشخصيّة بتعريفاتٍ عديدة زادت عن الخمسين. فعرّفها صالح أبو جادو بقوله: "هي تلك الأنماط المستمرة المتسقة نسبياً من الإدراك والتفكير والإحساس والسلوك التي تبدو وتعطي للناس ذاتيتهم المتميزة، فهي تكوين اختزالي يتضمن الأفكار والدوافع والانفعالات والميول"[5]. وعرّفها (بيرت) بقوله: "الشخصيّة ذلك النظام الكامل من الميول والاستعدادات الجسمية والعقلية الثابتة نسبياً، والتي تعتبر مميزاً خاصاً للفرد"[6]. أمّا مصطفى عليان فعرّفها بقوله: "الشخصية صفة دالّة على توحدٍ في اتجاه الإنسان، واستواءٍ في أساس عقله الأشياء وميله إليها قبولاً ورفضاً"[7].

والناظر في التعريفات السابقة؛ يلحظ أنّها اشتركت في ذكر بعض الألفاظ للدلالة على مقومات الشخصيّة، وتلك الألفاظ هي: (إدراك، تفكير، استعدادات عقلية، عقل، دوافع، انفعالات، ميول). وبنظرةٍ فاحصة يتبيّن: أنّ ألفاظ: (إدراك، تفكير، إحساس، استعدادات عقلية، عقل) تتضمن الدلالة على المقوّم الفكري في الشخصيّة، والذي هو قوام (العقليّة). وأنّ ألفاظ: (سلوك، دوافع، انفعالات، ميول) تتضمّن الدلالة على المقوِّم السلوكي في الشخصيّة، والذي هو قوام (النفسيّة).

وعليه؛ فإنّ "الشخصيّة في كلّ إنسان نتاج متآلف لبعدين اثنين: عقليته ونفسيته. فبهما يتوجه سلوكه المرتبط ارتباطاً تلازمياً مع المفاهيم والميول، فتكون بذلك مفاهيم الإنسان وميوله هي قوام شخصيته"[8]. لذا؛ نستطيع القول: إنّ مقومات الشخصية الإنسانيّة اثنان فقط:

الأول: (المقوِّم الفكري) = العقليّة. **الثاني:** (المقوِّم السلوكي) = النفسيّة.

فشخصيّة الإنسان إذن؛ تساوي مجموع المركب العقلي والنفسي لديه. وبهذا التحديد المنضبط لمفهوم الشخصية؛ لا يكون لشكل الإنسان، أو هندامه، أو مركزه الاجتماعي أو الوظيفي أو الاقتصادي، أو انتمائه القومي أو الوطني؛ أي علاقة في تكوين مقومات شخصيّته.

وبناء على ذلك؛ فإنّ البحث في بناء الشخصيّة على وجه التحقيق؛ ينحصر فقط في كيفية بناء: المقوّم الفكري والمقوّم السلوكي.

<u>ثانياً: مقومات الشخصيّة الإسلامية في القرآن الكريم</u>: من المؤكد أنّ القرآن الكريم الذي أُنزل ﴿**هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[البقرة: 185]؛ قد اعتنى بتعيين وضبط مقومات الشخصيّة الإسلامية (الفكريّة والسلوكيّة)، وبيّنها أتمّ بيان، وذلك لما لها من أهمية في بناء شخصية المسلم وتوازنها وتحديد ميزاتها. ولأنّها بمثابة الأسس والضوابط التي ينطلق منها المسلم في تعامله مع الواقع المعاش، وتنظيم علاقاته مع خالقه ونفسه وغيره.

ومن خلال النظر في الآيات القرآنيّة التي تمّ فيها ذُكر الإيمان (الجانب الفكري والعقدي). والعمل (الجانب السلوكي). نستطيع أن نحدّد مقومات الشخصيّة الإسلامية، ونتبيّن منهج القرآن الكريم في بناء تلك المقومات وتنميتها وضبطها والربط فيما بينها. وبعد الاستقراء والتدبّر للآيات التي ذُكر فيها <u>الإيمان والعمل</u> معاً، نستنتج ما يلي:

1) تكرّر في القرآن ورود الإيمان مقترناً بالعمل الصالح، فيما يزيد على سبعين موضعاً.
2) إنّ أوضح مثال وأكمله دلالةً على المقومات الرئيسية للشخصيّة الإسلامية، قوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ <u>آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ</u>**﴾[العصر: 1-3]. فقد كان الإمام الشافعي –رحمه الله– دقيقاً في فهمه لمقاصد هذه السورة العظيمة، وأنّ تدّبرها بحقّ يُفضي لبناء شخصيّة المسلم وَفق منهج الله تعالى فقال: "لو تدبّر الناسُ هذه السورة لوسعتهم"[9].
3) جميع المواضع التي ورد فيها الإيمان مقترناً بالعمل الصالح؛ كان العمل الصالح فيها معطوفاً على الإيمان ومرتباً عليه[10]. مما يعني أنّ الإيمان أصل للعمل الصالح وسابقٌ عليه. وأنّ منهج القرآن الكريم في بناء الشخصيّة الإسلامية؛ يقتضي البدء ببناء الجانب الإيماني الفكري أولاً.
4) أنّ أيّ عمل غير صالح لا يدخل في نطاق المقوّم السلوكي للشخصية الإسلامية المتميّزة.

وبهذا يتبيّن أنّ القرآن الكريم حدّد مقومات الشخصية الإسلاميّة بعنصرين رئيسين:

الأول: الإيمان: ويتعلق ببناء الجانب العقدي والفكري وتنميته، ويتمّ بموجبه تكوين المفاهيم عن الوجود (الكون والحياة والإنسان) والموجِد ﷻ، وعلاقة الوجود بالموجِد. وبهذا الجانب يتم بناء العقليّة في الشخصيّة الإسلامية وتنميتها وضبطها.

الثاني: العمل الصالح: ويتعلّق ببناء الجانب السلوكي وتنميته: (دوافع، ميول، أفعال). وبهذا الجانب يتمّ بناء النفسيّة في الشخصيّة الإسلامية وتنميتها وضبطها.

ولقد أشار كثيرٌ من أهل العلم إلى معاني (الإيمان والعمل الصالح) بما يؤيد ما ذهبنا إليه: قال الحسن البصريّ: "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقرَ في القلب وصدّقه العمل"[11]. و(ما وقرَ في القلب): كناية عن الجانب العقدي والفكري. و(صدّقه العمل): كناية عن الجانب السلوكي التطبيقي. قال الشربيني: {إلا الذين آمنوا} أي: أوجدوا الإيمان، وهو التصديق بما عُلم بالضرورة مجيء النبيّ ﷺ به، من توحيده سبحانه والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. {وعملوا} أي: تصديقاً لما أقرّوا به من الإيمان"[12].

ومن الآيات القرآنيّة الدالّة على مقومات الشخصيّة الإسلامية، قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وابعَث فيهِم رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمِ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾[البقرة: 129]. فعند تدبّر هذه الآية ونظائرها في القرآن؛ نلحظ أنّها تشير إلى مقوميّ الشخصيّة الإسلامية، فـ"نجد أنّها تتضمّن جانبي العقل والنقل، أو جانب الغيب الذي لا يُناقش وإنّما هو محل الإيمان المُطلق، لأنّ العقل البشري قاصرٌ عن فهمه؛ وهنا يُكتفى بتلاوة الآيات من المُتعلم أو مُتلقي التربية، وهذا هو الجانب الأول. أما الجانب الثاني: فهو الذي يتمثل في تعبير "يُعلمهم" و"يُزكيهم "، فكلاهما يُشير إلى عمليةٍ بشريةٍ تتعلق ببناء السلوك وتشكيله وتغييره"[13]. قال صاحب المنار: "(يَتلو عليهم آياتكَ) المرَادُ بِالآياتِ فِيمَا سَبَقَ؛ دَلائِلَ العقَائِدِ وَبَرَاهِينَهَا،

وَأَمَّا (الْحِكْمَةُ) الْمُرَادُ بِهَا أَسْرَارُ الأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ وَالشَّرَائِعُ وَمَقَاصِدُهَا، (وَيُزَكِّيهم) أَي يُطَهِّرُ نُفُوسَهُم مِنَ الأَخلاقِ الذَّمِيمَةِ، ويَنزِعُ مِنهَا تِلْكَ الْعَادَاتِ الرَّدِيئَةَ، وَيُعَوِّدُهَا الأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ"[14]. وقال الخازن: "(ويعلمهم الحكمة) وهي: الإصابة في القول والعمل"[15]. هذا وقد ورد في السنّة المطهرة ما يؤيد قيام الشخصية الإسلامية على جانبين متكاملين متلازمين، هما: (الإيمان والعمل الصالح). وأنّه لا يُعتدُّ بأحدهما دون الآخر. وللمثال لا للحصر، قول النبي ﷺ: "لا يُؤمِنُ أَحدُكُم حتَّى يكُونَ هواهُ تَبَعًا لِمَا جِئتُ بِه"[16]. "أي لا يكمل إيمانُ أحدِكم حتى يكونَ في متابعة الشرع وموافقته له"[17].

وقد يُعبّر عن هذين المقوّمَين في الفكر الإسلامي، بأكثر من مصطلح، مثل: الإيمان والعمل، العقيدة والشريعة، الفكر والسلوك، العقليّة والنفسيّة. ولا مُشاحة في الاصطلاح.

وفي ختام هذا المبحث نخلص إلى القول: بأنّ البحث في بناء الشخصيّة الإسلامية في ضوء تدبّر الآيات القرآنيّة المتعلقة في ذلك؛ ينحصر فقط في كيفية بناء: المقوّم الفكري = العقليّة. والمقوّم السلوكي = النفسيّة، وكيفية تنمية هذين المقوّمين وضبطهما. وهو ما سيكون موضوع حديثنا في مباحث هذه الدراسة – بإذن الله تعالى –.

المبحث الأول
الإرشاد القرآني لبناء المقوّم الفكري في الشخصية الإسلامية

مدخل:

تبيّن لنا – فيما سبق – أنّ منهج القرآن الكريم في بناء الشخصيّة الإسلامية؛ يقتضي البَدء ببناء الجانب الإيماني الفكري أولاً. لما له من أهميّة في تكوين العقليّة الإسلاميّة، التي تُعدّ بمثابة القاعدة الفكرية التي يقيس عليها المسلم صوابيّة وخطأ أي فكر يُعرض عليه، وكذلك يتوقف عليه بناء المقوّم السلوكي وضبطه في الشخصيّة الإسلامية.

إنّ الطريقة التي أرشد إليها القرآن الكريم في بناء العقيدة الإيمانية؛ تعتمد على إطلاق التفكير في الآيات الكونيّة والأنفسيّة، قال تعالى: **﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾**[الذاريات: 19-21]. وفي السنن الإلهيّة الثابتة في معاملة الأمم والمجتمعات السابقة، قال تعالى: **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا﴾**[فاطر: 43]. فحثَّ ﷻ الإنسان على النظر والتأمّل والتفكّر في هذه الآيات العظيمة الباهرة المبثوثة في كتابه المنظور، والربط والمقارنة بينها وبين ما ورد من آيات تنزيليّة تتعلّق بها في كتابه المسطور (القرآن)؛ ليصل أصحاب الألباب والنُهى والأبصار إلى عقلِها، أي: حصول الاعتبار بهذه الآيات وإدراك حقيقة أنّ الوجود مخلوقٌ لخالق يتصف بصفات الكمال المطلق. قال تعالى: **﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ﴾**[العنكبوت: 43].

ولذا؛ فقد جعل الله تعالى النظر والتفكّر في هذه الآيات؛ فرضاً واجباً، وطريقاً موصلاً إلى الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى وما ينبني عليها من الحقائق الإيمانيّة الأخرى. قال تعالى: **﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**[يونس: 101]. قال القرطبي في تفسيرها: "أمرٌ للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال"[18]. وقال صاحب المنار: "ولذَلِكَ جاءَ القُرآنُ يُلِحُّ أَشَدَّ الإلحَاحِ بِالنَّظَرِ العقليّ، والتَّفكُّر والتَّدبُّرِ وَالتَّذَكُّر، فَلا تقرَأُ منهُ قليلاً إلا وتراهُ يَعرضُ عليكَ الأَكوانَ، ويأمُرُك بالنَّظَر فِيهَا واستخرَاجِ أَسرارها، واستجلاءِ حُكمِ اتفاقِهَا واختلافهَا **﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**[يونس: 101]"[19].

وعدّ بعض العلماء النظر في آيات الله المبثوثة في الأكوان والأنفس المؤدي لمعرفة الله؛ أول الواجبات على العبد عند بلوغه عاقلاً، ليكون إيمانُه مبنياً على نظرٍ وتفكّرٍ ذاتيٍ مباشر، غير خاضعٍ لتبعة التقليد المانع للعقل من الانطلاق. يقول

الباقلاني: "إنّ أول ما فرض الله على جميع العباد، النظر في آياته، والاعتبار بمقدوراته، والاستدلال عليه بآثار قدرته، وشواهد ربوبيته"[20].

وبهذه الطريقة فقط من التفكير المستنير[21]؛ يستطيع الإنسان الحصول على تفسير شامل وصحيح ومطابق لحقيقة الأمر، عن الوجود (الكون والحياة والإنسان) والموجِد ﷻ، والعلاقة بينهما. قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[فصلت: 53]. ومن خلال تدبّر الآيات السابقة ونظائرها في القرآن الكريم، تظهر أهميّة عمليتي التفكّر والتعقُّل في بناء المقوّم الفكري للشخصيّة الإسلامية. فما المقصود بالتفكّر والتعقُّل؟ وما العلاقة بينهما؟

المطلب الأول: مفهوم (التفكر، والتعقّل) والعلاقة بينهما:

أولاً: مفهوم العقل لغة واصطلاحاً: (العقل) في اللغة من الألفاظ المشتركة التي تطلق على أكثر من معنى، فـ "العقل: نقيض الجهل، والمعقول ما تعقله في فؤادك. وعقلت البعير عقلاً، شددت يده بالعقال أي الرباط. اعتقل اللسان: انحبس عن الكلام. وعاقلة الرجل: أقاربه الذين يمنعونه من الغير. وعَقَلَ: تثبت في الأمر. وعَقَل الشيء: فهمه. والعقل: الحصن وجمعه العقول. والعقل: الحابس عن ذميم القول والفعل. والعقل: الحجر والنُهى ضد الحمق. والعقال: داء في ساق الدابة يمنعها من المسير. والعقال: الحبل الذي يُربط به الشيء"[22]. وبهذا يتبين أنّ لفظ العقل في اللغة يدور حول معاني: الشدّ، والربط، والحجر، والتحصُّن، والمنع، والحبس، والفهم، والتثبت. فالقدرة على العقل: هي القدرة على التوثيق والربط والتثبّت. والتوثيقُ يشتمل على نفي وإثبات. فبعملية العقل لأمرٍ ما يقوم الإنسان بـ:

1- تثبيت المعلومات الصحيحة عن ذلك الأمر في الذهن ومنعها من الذهاب.
2- نفي المعلومات غير الصحيحة عن ذلك الشيء واستبعادها عنه.
3- الحكم على ذلك الأمر حكماً صائباً بدرجة القطع والجزم.

وأمّا العقل اصطلاحًا: فقد تعددت وتفاوتت تعريفات العلماء له، ومن أخصرها وأقربها لواقع عمليّة التعقّل قول ابن تيمية بأنّ العقل هو: "ما يقع به التمييز، ويمكن الاستدلال به على ما وراء المحسوس"[23]. "فهذا التعريف روعي فيه الدور الوظيفي للعقل في الاستفادة من معطيات الحواس والبناء عليها؛ لتحصيل العلم بالمجهول"[24].

ثانياً: العقل في القرآن الكريم: لم يرد لفظ (العقل) في القرآن الكريم كمصدرٍ دالّ على ذات، وإنّما ورد بصيغة الفعل: (يعقل، نعقل، يعقلون، تعقلون، يعقلها، عقلوه)؛ وذلك في (49) موضعاً من القرآن، وهو ما يدلُّ على أنَّ العقل ليس مصدرًا قائمًا بذاتِه، وإنَّما هو عمليَّة تعقُّل يقوم بها الإنسان، قوامها الربط بين الدَّالّ والمدلول، والأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج، للوصول إلى فكرٍ صحيح عن الواقع المراد عقله، أي فهمه وإدراكه.

وإذا نظرنا إلى صيَغ التعقّل المذكورة في القرآن من خلال سياقاتها؛ نجد أنّها تحمل معاني مشتركة تدور حول النظر العقلي المفضي إلى الاعتبار والتبصّر القائم على الربط بين آيات كتاب الله المنظور (الكون والأنفس) وآيات كتابه المسطور (الوحي)، للوصول إلى اكتشاف حقائق الوجود وعلاقتها بالموجِد ﷻ. قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[البقرة: 64].

ثالثاً: مفهوم الفكر لغةً واصطلاحاً: الفكر في اللغة من فَكّرَ يفكرُ تفكيراً، قال ابن منظور: "الفَكْرُ والفِكْرُ: إعمال الخاطر في

الشيء"[25]. وقال ابن فارس: "الفاء والكاف والراء؛ تردُّدُ القَلْب في الشَّيء. يقال تفكّرَ إذا ردَّدَ قلبه معتبِراً"[26]. ونقل الراغب عن بعض الأدباء أنّ "الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها"[27].

وحول هذا المعنى اللغوي تدور غالب التعريفات الاصطلاحية للفكر. يقول الغزالي: "اعلم أنّ معنى الفكر: هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة"[28]. وعند الرَّاغب الأصفهاني هو: "قوَّة مطرقة للعلم إلى معلوم، وجوَلان تلك القوَّة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يمكن أن يُقال إلاَّ فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلْب"[29]. وقال الجرجاني: "الفكر: ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول"[30]. ومن المعاصرين عرّفه فتحي جروان بقوله: "التفكير في أبسط تعريف له عبارة عن سلسلة من النشاطات العقلية التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس الخمس"[31]. وبهذا يتبين أنّ التفكير: "نشاط عقلي أو ذهني، يبدأ عند وجود مثير ما، كحدث، أو ظاهرة، أو موقف معين، خطواته متسلسلة ومنظمة، تبدأ بالملاحظة، يهدف للتوصل إلى نتيجة ما أو حل لمشكلة"[32].

رابعاً: التفكير في القرآن: وردت مادة (فكر) في القرآن الكريم في ثمانية عشر موضعًا، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر. وإنّما جاءت في صيَغ فعليّة، مثل: "فكَّر"، "يتفكرون"، "تتفكرون". ومن الملاحظ أنّ غالبيّة آيات التفكّر وردت في الآيات المكيّة، وهذه الكثرة تتوافق مع طبيعة وأهداف القرآن المكي في التركيز على تقرير مسائل التوحيد والنبوة والبعث وحقائق الوجود الأخرى، وبالمقابل ضرب الأفكار السائدة في المجتمع الجاهلي آنذاك، وبالتالي تأسيس منهج فكري منضبط صالح لبناء مقومات الشخصية الإنسانية وفق إرادة الخالق ﷻ.

وقد يأتي التفكير في القرآن بمعنى النظر العقلي والتأمّل، والانتقال من المقدمات العلمية أو الظنية إلى ما يترتب عليها من نتيجة علمية أو ظنية. قال صاحب المنار: "وَاسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّفْكِيرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا فِي العَقليَّاتِ المَحضَةِ أَو فِي الْعَقْلِيَّاتِ الَّتِي مَبَادِئُهَا حِسِّيَّاتٌ... وَأَكْثَرُ مَا اسْتَعْمَلَهُ التَّنْزِيلُ فِي آيَاتِ اللهِ وَدَلائِلِ وَجُودِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ"[33]. وعند الرازي فإنّ الفكر والنظر مسميان لمسمّى واحد، فـ"النظر والفكر عبارة عن ترتيب مقدمات علمية أو ظنية، ليتوصل بها إلى تحصيل علم أو ظن"[34]. وقال الراغب: "النَّظَرُ: تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدرَاكِ الشيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ. يقال: نَظَرْتَ فلم تَنْظُرْ. أي: لم تَتَأَمَّلْ ولم تَتَرَوَّ"[35].

"والقرآن الكريم يذكر التفكير ويعبر عنه بكلمات متعددة، تشترك في المعنى أحياناً، وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق أحياناً أخرى، فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم، وسائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحياناً في المدلول، ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغني عن سائر الكلمات الأخرى"[36]. فمن خلال إحصاء الآيات التي تدعو إلى التفكير بلفظه الصريح أو بواسطة نظائره مثل: التدبّر، التبصّر، التعقّل، النظر، التذكّر، التفقّه – على مستوى الجذور والمشتقات – يتبين أنّ مجموعها يساوي تقريباً (624) آية، أي ما نسبته حوالي 10% من العدد الكلّي لآيات القرآن[37]. وفي هذا دلالة على أهمية التفكير بالنسبة للإنسان، وخطورة دوره في تحديد معالم شخصيته في الدنيا، وتحديد مصيره في الآخرة.

خامساً: العلاقة بين التعقّل والتفكّر في القرآن: وبناء على ما سبق، وفي ضوء استقراء وتدبّر الآيات القرآنيّة التي وردت فيها مشتقات (التعقّل، والتفكّر)، نستطيع أن نستنتج بعض الملاحظات التي تساعدنا على فهم العلاقة بين التعقّل والتفكّر

في استعمال القرآن، ونجمل هذه الملاحظات بالآتي:

أولاً: الفرق الجوهري من حيث المعنى اللغوي بين التفكّر والتعقّل: هو أنّ التعقّل: ربط ومنع. والتفكّر: تقليب وترديد. فالقدرة التفكيرية تختلف عن القدرة العقلية.

ثانياً: عمليّة التعقُّل خاصّة، يتّصف بها أهل العلم المنتج للإيمان الذين يتفكرون في العلاقة الخالقية ويدركونها فقط، **﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾**[العنكبوت: 43]. أمّا الكفّار الذين لا يُدركون العلاقة الخالقيّة؛ فصفة التعقّل منفيّةٌ عنهم **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾**[البقرة:171]. أمّا عمليّة التفكّر فعامّة يشترك بها جميع الناس الذين يملكون عوامل التفكير.

ثالثاً: عمليّة التفكّر قد تنتج حكماً عقلياً صائباً، وقد تنتج فكراً منحرفاً خاطئاً. **﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾**[المدثر: 18-20]. أمّا التعقّل فلا ينتج إلا صواباً وحكمة.

رابعاً: إنّ التعقُّل ليس هو التفكّر وإنّما نتيجته. فقد يحصل تفكّر ولا يحصل منه تعقُّل، ولا تعقُّل بدون تفكير. فباستقراء الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر التفكّر والتعقُّل في سياقٍ واحد؛ يلاحظ أنّ التعقُّل لا يُذكر إلا بعد التفكّر. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: **﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**[النحل: 11- 12].

وفي هذا دليلٌ واضح على أنّ عمليّة عقل الشيء لا تتأتى إلا بعد تفكيرٍ دقيقٍ وشامل لذلك الشيء وما يتعلّق به. وهذا يعني أنّ التفكير في الشيء مقدّمة ضروريّة ولازمة للوصول إلى الحكم العقلي الذي يُعدّ نتيجة لتلك العمليّة.

وبناء على ما سبق من تعريفات لغويّة واصطلاحية واستعمالات قرآنية لمادتي التعقّل والتفكّر يتبيّن أنّ "المنظومة العقل آليات معينة تعمل معاً لتحقق المفهوم الذي أراده القرآن، فالتفكير والتقليب والتأمل وإمعان النظر والإنضاج وتوفير المعرفة والبحث عنها، جميعها آليات للعقل تعمل معاً في توازن دقيق وحركة دائمة، موضوعها هو الواقع، يشارك في إداركه الحواس وقوة الدماغ والمعارف المكتسبة وقوى النفس المختلفة، جميعها تعمل معاً فليس هناك جهة واحدة مسؤولة عن العقل دون أخرى، بل جميع قوى الإنسان الداخلية بما فيها بناءه المعرفي، وبيئته الخارجية وقنوات اتصاله مع البيئة الخارجية، تشارك جنباً إلى جنب في عملية العقل، فإن وصلت إلى غايتها فقد حصل العقل، وإلا فلا يخرج عن كونه كالأنعام بل أضلُّ سبيلاً، فالكافرون والعاصون مثلاً، لا يتحقق عندهم مفهوم العقل، بالرغم من أنّهم يمارسون كثيراً من فعاليات التفكير، إلا أنّهم لا تكتمل عندهم منظومة العقل، فوصَفَهم القرآن بأنّهم لا يعقلون. فالعقل بهذا المعنى وازعٌ يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف"(38).

المطلب الثاني: مجال التفكير وحدوده في ضوء القرآن الكريم:

فكما أنّ القرآن الكريم حثّ على التفكير، ولفت الانتباه إلى أهميته كوسيلة لحصول الإنسان على المعرفة الصادقة عن الوجود والموجِد والعلاقة بينهما، فقد ضبطه وحدّد المجال الذي ينبغي أن يعمل فيه ولا يتعداه. وقد بيّن القرآن الكريم أنّ مجال التفكير ينحصر في الواقع المحسوس والآثار الدالة على وجود واقع.

فالقرآن الكريم حدّ مجال التفكير بالحدّ الفاصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فجعل معطيات عالم الشهادة هي ميدان التفكير الصالح للنظر والتأمل والتبصّر لوقوعها في نطاق الحواس. فالحواس هي أدوات نقل صورة الواقع إلى الدماغ.

وهذا يعلل نهي القرآن عن محاولة إقحام عمليّة التفكير خارج نطاق الحواس. قال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾[الإسراء: 36].

أمّا الأمور الغيبية التي وراء الواقع المحسوس، فلا سبيل لعقلها بواسطة التفكير؛ لأنّها خارجة عن مجاله وحدوده. قال الشافعي: "إنّ للعقل حداً ينتهي إليه، كما أنّ للبصر حداً ينتهي إليه"[39]. فـ "عقولنا مفتقرة في إدراك عالم الغيب إلى الوحي، وإنّه يجب علينا الوقوف في المغيبات عند النص الموحى به"[40]. لهذا، فقد ذمّ الله تعالى من يبحث في الغيب أو يدعى معرفته، قال تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾[مريم: 78، 79]. ولهذا؛ أخطأ بعض الفلاسفة وتاهوا؛ عندما جعلوا الغيب مجالاً للبحث والنظر العقلي. ومن هنا تُفهم الحكمة من قول النبي ﷺ: "من أتى عرّافاً فسأله عن شيءٍ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة"[41].

أمّا بالنسبة لمجالات التفكير المندرجة في نطاق الواقع المدرك بالحس، والتي لفت القرآن الكريم انتباه الإنسان إليها، وحثّه على النظر والتفكّر فيها فمتعددة، وقد أشار ابن القيم إلى أصول مجالات التفكّر في آيات الله المنظورة والمسطورة بإيجازٍ بليغ بقوله: "التفكر في القرآن نوعان: تفكّر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه. وتفكّر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه. فالأول تفكر في الدليل القرآني، والثاني تفكر في الدليل العياني. فالأول تفكر في آياته المسموعة، والثاني تفكر في آياته المشهودة، ولهذا أنزل الله القرآن ليُتَدبّر ويُتفكّر فيه ويُعمل به، لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه"[42].

إنّ آيات التنزيل الحكيم؛ هي أول الأمور وأهمها التي وجه الله ﷻ الإنسان إلى التفكّر فيها؛ ليتبصّر ويعقل من خلالها حقائق الإيمان المدعو إلى التصديق بها تصديقاً جازماً مطابقاً للواقع. ومن الآيات الداعيّة إلى التفكّر في آيات القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[النساء: 82]. قال السعدي في تفسيرها: "يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم، ذلك فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنّه يُعرّف بالربّ المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويُعرِّف الطريق الموصلة إليه... وكلما ازداد العبد تأملا فيه ازداد علما وعملا وبصيرة"[43]. وفي هذا المعنى يقول موريس بوكاي: "وتناولتُ القرآن كلَّه منتهيًا بشكل خاص إلى الوصْف الذي يعطيه عن حشْد كبير من الظواهر الطبيعية الواضحة في النصّ العربي الأصيل للقرآن، ومطابقة هذا النصّ غير المترجَم للمفاهيم العلمية التي نملكها اليوم عن نفس الظواهر الكونية التي لم يكن ممكنًا لأيِّ إنْسان في عصر محمد ﷺ أن يعرفها أو يمتلك منها أدْنَى فكرة، أوَّل ما يثير الدَّهشة في رُوح من يواجه القرآن أول مرة هو ثراءُ الموضوعات العلمية"[44].

فـ"المحور الرئيس في المنهج اللازم لتنمية القدرات العقلية، والتفكير السليم، هو التفاعل مع عناصر الكون القائم، والأحداث الجارية فيه. فالقدرات العقلية تنمو وتنضج من خلال دراسة هذا الكون، وعناصره المتناثرة في الكرة الأرضية، وغيرها من الكواكب. ولذلك كانت التوجيهات الإسلامية للسير في الأرض، والبحث في نشأة عناصر الوجود، وتطور هذه العناصر وتركيبها ... وكلما اتسعت رحلة القدرات العقلية، وعملية التفكير خلال بعدي الوجود الزماني، كلما نمت هذه القدرات وأُحكمت عملية التفكير "[45].

و"في القرآن الكريم ما يزيد على ألْف آية تتحدَّث عن معالم هذا الكون، وتَذْكر مفرداته من: السماوات والأرض، والشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والجبال والبحار والأنهار، والمطر والرعد والبرق... إلى آخره، وإذا كانت هذه الآيات قد ذَكَرت تلك المفردات في سياقِ لفْتِ الأنظار إلى مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق، دلالةً على وحْدانية الخالق سبحانه، وتُثْبِت قضية البعث الذي أنكره الكفَّار، فإنَّها مع ذلك قد جاءت في أسلوبٍ وعبارةٍ تفتح أمام العقل البشري آفاقًا واسعة

للتفكير في دلالاتها عبْرَ عصوره المتعاقِبَة من بَعد نزول القرآن، فيقوم لدَيه من هذه الدلالات في كلِّ عصر ما يشهد بالحقِّ الذي جاءت به"[46].

قال السعدي عند حديثه حول قوله تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾**[فصلت: 53]: "كالآيات التي في السماء والأرض وما يحدثه تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحقّ، (وَفِي أَنْفُسِهِمْ): مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع صنع الله، وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين ونصر المؤمنين. (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ) من تلك الآيات، بيانًا لا يقبل الشك (أَنَّهُ الْحَقُّ) وما اشتمل عليه حقّ"[47].

كما نبّه القرآن الكريم، إلى أهميّة التعرف على السنن الإلهية في التاريخ والاجتماع، وتدبّرها والإفادة منها في معرفة أسباب النهوض الحضاري والنصر والتمكين، لأجل تحصيلها. قال تعالى: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾**[النور: 55]. ومعرفة أسباب الانحطاط والتخلف والانهزام والإهلاك. لأجل تجنبها، قال تعالى: **﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾**[آل عمران: 137].

"لهذا ينبغي معرفة السنن الإلهية، وتدبّرها والتفكّر فيها، لتوظيفها لبناء المجتمع وتربيته وتزكيته، فمن خلال السنن نعي عوامل البقاء التي تحفظ المجتمع من الانحلال. على أنّ هذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي والطاعة والمعصية والإيمان والكفر، فالإنسان إذا أتى الأمر واجتنب النهي ووقف عند حدود الله؛ أصاب خير السنة الربانية، وإذا أهمل الأمر وارتكب النهي وقع في حدود الله"[48].

المطلب الثالث: دور العقيدة الإسلامية في بناء المقوم الفكري في الشخصيّة الإسلامية:

<u>أولاً: طبيعة العلاقة بين العقيدة والتفكير</u>: إنّ العلاقة بين العقيدة والتفكير، علاقة بينيّة قائمة على التلازم والتأثّر والتأثير. فالتفكير لازم لبناء العقيدة وتقريرها، وذلك بواسطة النظر في ما ورد من حقائق عقديّة في الآيات التنزيلية ومقارنتها في ما بثّ الله –تعالى– في الآيات الكونية والأنفسية من عجائب قدرته وفائق دقّة صنعته؛ الدالّة على أنّ الله وحده هو منزّل القرآن وخالق الأنفس والأكوان. مما يدفع المتفكّر؛ للاقتناع العقلي والاطمئنان القلبي بجميع الأمور العقديّة الواردة في الوحي المنزّل، والتصديق بها تصديقاً جازماً مطابقاً لواقعها. هذا هو الطريق السليم الذي أرشدَ إليه القرآن الكريم لتقرير مسائل العقيدة الإسلاميّة. قال تعالى: **﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾**[الإسراء: 105].

ف"الطريق إلى سيادة الحقّ –في مجال العقيدة– إنَّما يبدأ حسب التوجيه القرآني بالتأمُّل في الواقع المحسوس ضمن المخلوقات الإلهيَّة التي تتجلَّى فيها حكْمة الصَّانع الحكيم العليم، وهو ما أكَّدت عليه جملة كثيرة من الآيات، مثل قوله تعالى: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[العنكبوت: 20]. أو بالتأمُّلِ في الواقع المحسوس من آثار الأمم السابقة ورسومها، تلك التي تدلُّ على سوءِ العاقبة بالنسبة لأولئك الذين رفضوا الحقَّ في عقيدتهم وأقاموها على باطل الشِّرك، وهو ما أكدت عليه جملة أخرى من الآيات، مثل قوله تعالى: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾**[آل عمران: 137]"[49].

ومن جانبٍ آخر، فإنّ العقيدة تضبط عملية التفكير، وتحميها من الانزلاق في متاهات الظنون والهوى والأوهام والأساطير. فنهى القرآن الكريم عن اتباع الظنّ والهوى في مسائل الاعتقاد، قال تعالى: **﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾**[النجم: 28]. وكذلك فإنّ العقيدة هي التي تبيّن لعمليّة التفكير المجالات الصالحة لعملها، والحدود التي لا ينبغي لها أن تخرج عنها.

ثانياً: أهميّة العقيدة الإسلاميّة في بناء المقوّم الفكري في الشخصية الإسلامية: إنّ منهج القرآن الكريم في بناء المقوم الفكري (العقليّة) وتنميته في الشخصيّة الإسلامية، يعتمد بالدرجة الأولى على إعطاء فكرة كليّة شاملة وصحيحة عن الوجود (الكون والحياة والإنسان)، والموجِد ﷻ، والعلاقة بينهما.

ومن المُسلّم به، أنّ العقيدة الإسلامية أعطت إجابات صحيحة ومقنعة عن كلّ ما يتعلّق بالوجود والموجد والعلاقة بينهما، يتمثل ذلك بالحقائق الرئيسية لأركان الإيمان في الإسلام وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى. وما تفرّع عن هذه الأركان من حقائق إيمانية تضمّنت الأجوبة الصادقة –المقنعة للعقل والموافقة للفطرة والمُدعّمة بالحجج والبراهين– عن جميع الأسئلة التي تُشكّل العقدة الفكريّة الكبرى لدى الإنسان، نحو: من خلقني، ومن أيّ شيءٍ خُلقت، وكيف؟ ولماذا خُلقت، وإلى أين المصير؟ ومن خلق الكون ولماذا؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الفكريّة التي تجول في ذهن الإنسان. "فمن يتدبَّر آيَ القرآن الكريم؛ يستطيع أنْ يتبيَّن أنَّه قد تضمَّن منهجًا واضحًا للبرْهنة العقلية على أمَّهات مسائل العقيدة، وتلك حقيقة يؤكِّدها جمهور علماء المسلمين"[(50)].

وعليه؛ فإنّ العقيدة الإسلاميّة؛ تُعدّ الركن الأساس في بناء شخصيّة المسلم، لأنها تُشكّل القاعدة الفكرّية التي يبني عليها تصوراته وأفكاره وتصديقاته عن الوجود والموجِد وطبيعة العلاقة بينهما، وبالعقيدة الإسلاميّة كذلك؛ يُكوّن مفاهيمه عن الأشياء، تلك المفاهيم التي تتحكم بمشاعره وتنظم سلوكه.

ثالثاً: أثر تدبّر القرآن في بناء أركان الإيمان: من خلال تدبّر الآيات القرآنية الواردة في تقرير العقائد الإيمانيّة وإثباتها؛ يتبيّن أنّ منهج القرآن الكريم في هذا الجانب؛ قائم على توجيه الإنسان إلى التفكّر بعجائب مخلوقاته ﷻ الواقعة تحت إدراك الحسّ، بادئاً بأبسطها وأقربها بالنسبة لبيئة الإنسان ومحيطه. فتجده مثلاً، أول ما يوجه ساكن الصحراء التي تحيطها الجبال وتكثر فيها الإبل، إلى النظر والتفكّر في عظمة هذه الأمور وإتقان خلقها، بادئاً بأقرب الأشياء لإنسان تلك البيئة وهي الإبل، قال تعالى: ﴿**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ* فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ**﴾[الغاشية: 17-21].

والإنسان العربي بذكائه وصفاء قريحته؛ أدرك هذه الخاصيّة في سهولة تلقي حقائق العقيدة الإسلامية، فكان يسارع في الإيمان بها والتدليل على حقيّتها. يُفهم هذا من قول ذلك العربي في معرض حديثه حول إثبات أنّ الكون مخلوق لله تعالى: "البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحر ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟!"[(51)].

ولطلب الاختصار، سنكتفي بذكر مثال تطبيقي واحد، لبيان أثر تدبّر القرآن الكريم في بعض المسائل المتعلقة بالإيمان بالله تعالى، خاصّةً ما يتعلّق بإثبات صفة (الخالق) لله تعالى. فمثلاً إذا تلا الإنسانُ أو سمع قول الله تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ**﴾[الطور: 34-36]. ثمّ أمعنَ النظر، وردّد الفكرّ، في معاني هذه الآيات ودلالاتها القاطعة على أنّ الله تعالى هو خالقُ كلّ شيءٍ، وأنّ كلّ نظريّة أو عقيدة أو فكرٍ لا يقرُّ بهذه الحقيقة الدامغة فهو باطل. قالَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ* أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ**﴾ [الطور: 35 – 37]؛ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ"[(52)].

قال ابن تيميّة: "هذا تقسيم حاصر، يقول: أخُلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا ممتنع في بدائه العقول، أم هم خَلقوا أنفسهم؟ فهذا أشدّ امتناعاً، فعُلم أنّ لهم خالقاً خلقهم، وهو الله سبحانه، وإنّما ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليتبين أنّ

هذه القضية التي استدل بها فطرية بديهية مستقرة في النفوس، لا يمكن إنكارها، فلا يمكن لصحيح الفطرة أن يدّعي وجود حادث بدون محدث أحدثه، ولا يمكنه أن يقول: هو أحدث نفسه"[53].

وهكذا في جميع أركان الإيمان، وكذلك ما يتعلّق بمنهج التعامل مع الغيب وحقيقة البعث، وغير ذلك من الأمور العقدية. فـ "ما من قضيَّة عقَديَّة ساقها القرآنُ الكريم إلاَّ قرَنَها بدليل صِدْقها وبرهان يقينها القَطعي في دلالته، فيجب على كلِّ باحث ألاَّ يغفل عن التَّنبيه إلى ما يحتويه النصُّ القرآني من برهان عقْلي يتَّصل بالموضوع الذي يتحدَّث عنه"[54].

وفي ختام هذا المبحث نستطيع القول؛ بأنّ القرآن الكريم تضمّن منهجيّةً فريدة في ما يتعلّق ببناء الجانب الفكري والعقدي في الشخصية الإسلاميّة، بدءاً بجعل التفكير المستنير؛ طريقاً موصلاً للقناعة العقليّة بحقائق الإيمان، مروراً بالارتقاء بطرق التفكير وأنماطه، وانتهاءً بضبط مجالاته وحدوده.

وفي هذه الأيام التي يواجه فيها المسلمون أشدّ الهجمات الفكريّة الخارجية المنحرفة، هم بأمسِ الحاجة إلى النظر في آيات القرآن الكريم المتعلقة بشتى مجالات النظر والتفكير؛ وتدبّرها والتفكّر في مدلولاتها ومقاصدها، لتحصين منظومتهم الفكريّة من الجمود والانغلاق والتقليد، والارتقاء بطرق تفكيرهم إلى المستوى الذي يؤهلهم لبناء الشخصيّة الإسلامية الفاعلة في جميع ميادين الحضارة والتمدّن، ليستحقوا تبوءِ المكانة التي أراد الله لهم في قيادة البشرية ودلالتها على الخير، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، وذلك تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[آل عمران: 110]. وليتحقّق بهم ولهم، الشهود الحضاري الذي أراد الله لهم أن يبلغوه: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾[البقرة: 143].

المبحث الثاني
توجيه القرآن الكريم في بناء المقوّم السلوكي في الشخصية الإسلامية

بعد أن تطرّقنا في المبحث السابق؛ لإرشاد القرآن الكريم في بناء المقوّم الفكري في الشخصيّة الإسلامية؛ سنتناول في هذا المبحث – بإذن الله تعالى– كيفية بناء المقوّم السلوكي في الشخصيّة الإسلامية من خلال المنظور القرآني لـ: مفهوم السلوك وتفسيره، ودوافعه وغاياته، وتنظيمه وضوابطه.

مدخل:

قبل الولوج في تفصيلات هذا المبحث، تجدر الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم بنى المقوّم السلوكي (العمل) وضبطه لدى المسلم؛ بمجموعة الأحكام الشرعية الناظمة لعلاقات الإنسان الرئيسية الثلاث (مع ربه، ومع نفسه، ومع غيره)، حيث جاءت تلك الأحكام، إمّا على شكل قواعد وضوابط كليّة، تندرج تحتها أحكامٌ لجزئياتٍ سلوكيّة كثيرة، نحو قاعدة: (لا ضرر ولا ضرار)، وقاعدة (درء المفاسد أولى من جلب المصالح). وإمّا على شكل أحكام جزئيّة تفصيليّة، نحو: قوله تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**﴾[الأنعام: 152]. والتي قنّن الفقهاء بموجبها مجموعة النُظُم الإسلامية، التي تعالج كافة شؤون الإنسان وتنظِّم علاقاته، وهي: (نظام العبادات، ونظام الحكم، والنظام الاجتماعي، والنظام الاقتصادي، ونظام الإعلام والتعليم، ونظام العقوبات).

والمتدبّر للآيات القرآنيّة المتعلقة بالتأصيل والتقعيد لهذه القواعد والأحكام الناظمة للسلوك؛ سيرى مدى حقيّتها ونجاعتها وكمالها في تنظيم علاقات الإنسان وتدبير شؤونه، وتفوقها على الأنظمة الوضعية في هذا الجانب، ممّا يدفَعه –وعن رغبة ورضا– لتطبيق تلك الأحكام، وضبط سلوكه بموجبها.

المطلب الأول: تفسير السلوك من حيث (المفهوم والدوافع):

أولاً: مفهوم السلوك لغةً واصطلاحاً: السلوك لغةً: مصدر سَلَكَ، وهو يتضمّن معنى: الدخول، والنفوذ في الشيء، والاستقامة. فـ"السين واللام والكاف: أصلٌ يدلُّ على نفوذ شيءٍ في شيء. يُقال سلَكتُ الطَّريقَ أَسلُكُه. وسَلكتُ الشيء في الشيء: أنفذْته. والسُّلْكَى: الأَمْر المُسْتَقيم. وسلكتُ الخيطَ في المخيط، أي أدخلته فيه"[55]. "ويطلق السلوك على سيرة الإنسان ومذهبه واتجاهه"[56].

السلوك في الاصطلاح: السلوك الإنساني من وجهة نظر علم النفس الحديث: يشمل كلّ ما يصدر عن الإنسان من نشاط قولي أو فعلي. وقد عرّف العلماء السلوك بأكثر من تعريف، وطلباً للاختصار فإنّي أختار ما أراهُ أقربها انطباقاً على واقع السلوك، والقاضي بأنّ السلوك هو: "أعمال الإنسان التي يقوم بها لإشباع جوعات غرائزه أو حاجاته العضوية"[57].

ثانياً: السلوك في القرآن الكريم: ذكرنا في المبحث الأول من هذه الدراسة، أنّ المقوم السلوكي في الشخصيّة المسلمة؛ هو تعبيرٌ اصطلاحي عن (العمل)، أي الجوانب التي تشكّل النفسيّة ابتداء من (جوعات الحاجات والغرائز، فالميول، فالسلوك للإشباع). ولهذا نستطيع القول بأنّ مصطلح (العمل) بشكل مطلق في القرآن الكريم؛ يقابل (السلوك) في علم النفس الحديث. وقد جعل الله تعالى السلوك مناط العقاب والثواب، قال تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[الزلزلة: 7-8].

فالسلوك إذن؛ هو الجانب الأهم في تكوين النفسيّة، و"القرآن الكريم يشير إلى أنّ النفس مستودع الكثير من الدوافع السلوكية، وأنّ الإنسان مسؤولٌ عن جميع سلوكه، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾[النحل: 111]. أي بما كسبت من أعمال إذ هي المسؤولة، فهي لا غيرها التي تجادل عما عملت، وقال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[المدثر: 38]. فالنفس تكسب عملها بمحض حريتها واختيارها وإرادتها، فهي رهينةُ عملها الذي سيحاسبها به الله ﷻ"[58].

ثالثاً: دوافع السلوك: من المعلوم بداهةً أنّ الإنسان لا يقوم بنشاط ما إلا إذا كان هناك شيء يدفعه لذلك. لذا؛ فإنّ "الدوافع (Motives)، كما يسميها علم النفس الحديث؛ تعدّ من محددات الشخصيّة الإنسانية في الغالب، وهي عبارة عن طاقات نفسية كامنة في الكائن الحي، تدفعه لسلوك قصدي مُعيّن، سواء مع نفسه أو في حياته اليومية ومع عالمه الخارجي"[59].

ويرى بعض الباحثين أنّ الدافع عبارة عن "طاقة داخل الكائن الحي إنساناً أم حيواناً، تدفعه إلى القيام بسلوك معين أو نشاط معين تحقيقاً لهدف معين، هو إشباع هذا الدافع، كدافع الجوع الذي يدفع الكائن الحي إلى البحث عن الطعام"[60]. والإنسان –باعتباره كائنٌ حيّ– لديه طاقة حيوية، وهذه الطاقة تظهر في الكائن الحيّ إمّا بمؤثرات داخلية وهي الحاجات العضوية، مثل الحاجة إلى الأكل والشرب، والنوم، والأمن، والتطبيب، وغيرها. وإمّا أن تظهر هذه الطاقة بمؤثرات خارجية، وتسمّى الغرائز. وينتج عن هذه الحاجات والغرائز جوعات تدفع الإنسان لأن يسلك سلوكاً ما لإشباعها.

الغرائز والحاجات كدوافع للسلوك من منظور قرآني: أقرّ القرآن الكريم بوجود الغرائز والحاجات العضويّة لدى الإنسان، ووجهه إلى إشباعها بالطرق المشروعة. أمّا بالنسبة للحاجات العضويّة التي يتوقف بقاء الحياة عليها؛ فقد جعلها القرآن من المقاصد الضروريّة والحقوق الواجبة للإنسان، فإن لم يستطع سدّها من كسبه هو؛ أوجب له النفقة على وليّه. ولأهميّة هذا الجانب؛ فقد تكفّل المولى ﷻ لآدم وزوجه بما يسدّ الحاجة إلى الطعام والشراب والملبس والمسكن، قال تعالى: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلا**

تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى* وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾[طه: 118، 119]. فبنصّ هذه الآية "ضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم التعب والنصب"(61). وكذلك إذا تدبّرنا قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[قريش: 3، 4]. نجد أنّها أشارت إلى حاجتين رئيستين من حاجات الإنسان العضوية، وهما: حاجته إلى الطعام، وحاجته إلى الأمن، وأفاد مجيئهما بصيغة الماضي (أطعمَ، وآمنَ) إلى ضرورة إشباعهما وحتميّته، وكأنّه تحصيل حاصل. وكذلك فإنّ النبي ﷺ أكّد هاتين الحاجتين وزاد عليهما الحاجة إلى الصحة والتطبيب، فقال: "من أصبح منكم آمناً في سربه، معافىً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنّما حيزت له الدنيا"(62).

أمّا بالنسبة للغرائز، فقد أشارت إليها آياتٌ عديدة، منها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[آل عمران: 14]. ومن خلال تدبّر هذه الآية؛ نجد أنّها تشير إلى ما جبُل عليه الإنسان من الميل إلى إشباع جوعات الغرائز، فالميل إلى النساء وحبّ البنين؛ من مظاهر غريزة الحفاظ على النوع. والميل إلى تملك الذهب والفضّة والأنعام والحرث؛ من مظاهر غريزة حبّ البقاء. أمّا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾[الحج: 32]، وقوله: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[النمل: 24]. فقد أشارتا إلى الميل لإشباع مظاهر غريزة التديّن، كالعبادة والتعظيم والتقديس.

ومما سبق نستنتج؛ أنّ جوعات الغرائز والحاجات؛ معتبرة قرآنياً كدوافع للسلوك الإنساني. والواقع يشهد بذلك، فحاجة الإنسان للطعام مثلاً؛ تدفعه إلى الطهي، وتناول الطعام، ...الخ. وحاجته للتطبيب عند المرض؛ تدفعه إلى البحث عن الطبيب والعلاج. وجوعة غريزة التدين تدفعه إلى البحث عن معبود ليعظّمه ويعبده، وهكذا.

المطلب الثاني: القواعد الضابطة للسلوك في القرآن الكريم:

إنّ الجانب السلوكي يعدّ الركن الأهم في تكوين النفسيّة المسلمة، لذا؛ فإنّ القرآن الكريم جعل النفسيّة معياراً لقياس درجة انضباط الشخصيّة ومقدرتها على التغيير، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الأنفال:53]. ولهذه الأهميّة العظيمة للسلوك في حياة الإنسان؛ فإنّ القرآن الكريم وضع مجموعة من الضوابط والمحددات، التي تجعل سلوك المسلم – في حال مراعاتها والتقيد بأحكامها– سلوكاً راقياً منظماً، بعيداً عن الانحراف والتطرّف، مُرضياً لله ﷻ. ومن خلال التدبّر لبعض الآيات القرآنية؛ نستطيع أن نستنبط أهم القواعد الضابطة للسلوك في القرآن، والتي نجملها بالآتي:

القاعدة الأولى: تحديد الغاية الحقيقية للسلوك: إذا أردنا أن نفسّر الغاية من السلوك بحسب الفهم البشري لدوافع السلوك في نظريات علم النفس الغربي الحديث، سنضطر لوضع حدٍّ لغايات السلوك الإنساني، ينتهي سقف هذا الحدّ عند تحصيل إشباع جوعات الغرائز والحاجات العضويّة فقط، ويقف عند حدود الحياة الدنيا. وهذا فهمٌ قاصر.

أما من منظور قرآني؛ فإنّ غايات السلوك لا تقف عند حدّ إشباع جوعات الغرائز والحاجات فقط، وإنّما تتعدّى إلى تحقيق مرضاة الله ﷻ. وذلك بتجاوز حدود الحياة الدنيا، وربط غاية السلوك الحقيقيّة بالمآل المترتب عليه في الآخرة، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمران: 185]. وقد بيّن القرآن الكريم أنّ قَصْرِ غايات السلوك على حدود الحياة الدنيا فقط؛ يُعدّ سبباً للخسران ودخول النار، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾[الأحقاف: 20].

<u>القاعدة الثانية: تقييد السلوك بمفهوم الحلال والحرام</u>: تبيّن معنا فيما سبق أنّ جوعات الغرائز والحاجات العضويّة تعدّ دوافع معتبرة للسلوك من منظور قرآني، لذا؛ فإنّ الشارع الحكيم أوجب إشباع دوافع السلوك الناتجة عن جوعات الحاجات العضوية، وجعلها من درجة المقاصد الضرورية لتعلقها بالحفاظ على الحياة، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾**[البقرة: 172]. بل إنّه سبحانه أباح تناول المحظور لسدّ تلك الحاجة بقدر الضرورة، وذلك دَرءاً للوقوع في مفسدة هلاك النفس؛ قال تعالى: **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾**[البقرة: 173]. أمّا بالنسبة لإشباع دوافع السلوك الناتجة عن جوعات الغرائز؛ فقد جعله الله مباحاً، لنزوله عن مرتبة الضروري إلى الحاجي.

والجدير بالذكر هنا، هو أنّ الله تعالى لم يترك طريقة إشباع دوافع السلوك بدون ضبط وتنظيم، وكذلك لم يُسند طريقة ضبطها وتنظيمها إلى الإنسان نفسه، بل أسندها إلى الوحي المعصوم، فجعل الالتزام بطاعة الوحي هو ميزان اعتبار الأعمال شرعاً أو ردّها، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾**[محمد: 33]. فالله سبحانه؛ أراد من الإنسان –بخلاف الحيوان– أن يسلك في إشباعه لهذه الجوعات؛ سلوكاً راقياً مُنظّماً يليق بإنسانيته وموافقاً لتكريم الخالق له، **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾**[الإسراء: 70]. فأوجب الله على الإنسان أن يجعل أوامر الشرع في الحلال والحرام؛ مقياساً معيارياً لتصرفاته عند إشباع جوعات الغرائز والحاجات.

فمثلاً أباح الزواج كطريقة لإشباع دافع الميل الجنسي الناتج عن غريزة حفظ النوع، ثمّ ضبطه ونظّمه بالأحكام الشرعيّة، فأوجب الالتزام بالحلال **﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾**[النساء: 3]. ونهى عن الإشباع غير المشروع **﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا﴾**[الإسراء: 32]. ووجه إلى الصبر والتعفّف إلى حين الاستطاعة، لقول النبي ﷺ: "من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنّه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وجاء"(63). وبهذه الطريقة يتبيّن أنّ القرآن الكريم جعل مفهوم الحلال والحرام؛ معياراً لقياس النشاط السلوكي وضبطه لدى الشخصيّة الإسلامية المتميزة.

أمّا إذا ترك الإنسان لنفسه الحبل على الغارب، ولم يلتزم بمفهوم الحلال والحرام كمقياس لسلوكه، فعندئذٍ لا فرق بينه وبين البهائم التي لا همّ لها سوى إشباع دوافع الغرائز والحاجات فقط، **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾**[محمد: 12]. وكذلك فإنّ المتردد في سلوكه بين الالتزام وعدمه، ينطبق عليه الوصف النبوي لموقف المنافقين الوارد في قوله ﷺ: "مَثلُ المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة"(64).

<u>القاعدة الثالثة: علاج ثغرات السلوك بالتوبة والتعزيز</u>: "لا ينبغي أن نتصور الشخصيّة الإسلامية ملائكية في ديمومة الطاعة وبلا أخطاء، فقد تقع ثغرات في سلوكها بتقصير أو غفلة أو خطأ، وكلّ ذلك لا يمسّ الاتصاف بهذه الشخصيّة طالما أنّ صاحبها يتخذُ العقيدة الإسلاميّة أساساً لتفكيره وميله، لأنّ ارتباط مفاهيم الإنسان بالعقيدة ليس ارتباطاً آلياً، بحيث لا يتحرّك المفهوم إلا بحسب العقيدة، بل هو ارتباط اجتماعي فيه قابلية الانفصال وقابلية الرجوع بمعززات الإيمان من التوبة والندم وإدراك الخطأ والرجوع عن المخالفة"(65).

لذا؛ فإنّ الإسلام مراعاةً للطبيعة الإنسانيّة العامّة المُتصفة بالضعف خلقةً، **﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾**[النساء: 28]، ومراعاةً لطبيعة النفس الإنسانيّة المجبولة على الميل إلى الشهوات والمغريات، **﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾**[يوسف: 53]. قد عالج مسألة ثغرات السلوك في الشخصية المسلمة بأمرين:

أ. **فتح باب التوبة:** وهذا بابٌ واسع تظهر فيه رحمة الله ورأفته بالعباد، ويشكّل فرصةً ذهبيّة لتعديل السلوك، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾**[التحريم: 8]. فالتوبة في

الإسلام تجبّ ما قبلها، وتنهي مطالبة المذنب بتبعات ذنبه أمام الله تعالى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ)[66]. وبهذا يعدّ باب التوبة من أهم المعززات الإيجابية للإقلاع عن السلوك السيئ وتعديله إلى الحسن. وعليه؛ لا يعتبر العاصي أو الفاسق مرتداً أو خارجاً من دائرة الإيمان. قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾**[النساء: 110].

ب. **التعزيز السلوكي عن طريق نظرية العقاب والثواب:** يُعرّف التعزيز (Reinforcement) على أنّه "الإجراء الذي يؤدي فيه حدوث السلوك إلى توابع إيجابية أو إلى إزالة توابع سلبية، الشيء الذي يترتب عليه زيادة احتمال حدوث ذلك السلوك في المستقبل في المواقف المماثلة"[67].

ولقد اعترف كثيرٌ من التربويين بأهميّة ونجاعة تطبيق نظريّة العقاب والثواب كمعزّز للسلوك وتعديله وضبطه. وقبل هذا الاعتراف بعقود؛ فإنّ الله تعالى في كتابه الحكيم؛ رتّب المدح والثواب على السلوك الصالح الموافق للشريعة، ورتبّ الذمّ والعقاب على السلوك المنحرف المخالف للشريعة. فهناك الكثير من الآيات القرآنية التي أشارت إلى نظرية العقاب والثواب ودورها في ضبط السلوك وتوجيهه نحو خدمة الهدف الحقيقي من وجود الإنسان، ألا وهو عبادة الله تعالى والفوز برضاه. قال تعالى: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[النحل: 97]. وهذا من باب التعزيز الإيجابي للسلوك الموافق للشريعة والتشجيع على استدامته. وبالمقابل هناك تعزيز سلبي يدفع إلى ترك السلوك المخالف للشريعة، قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[النساء: 14]. وقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[يونس: 7، 8].

المبحث الثالث
كيفية بناء الشخصية الإسلامية المتميزة من خلال الربط بين مقوماتها الفكريّة والسلوكيّة

بالنظر إلى واقع حياة أغلب المسلمين في الوقت الحاضر؛ نجدُ انفصالاً – بنسبة كبيرة – بين الإيمان والعمل، أي بين معطيات المقوّم الفكري المشكّل للعقليّة، ومعطيات المقوّم السلوكي المشكّل للنفسيّة في الشخصيّة الإسلامية. لذا؛ فإنّي سأتحدث في هذا المبحث الختامي؛ حول طبيعة العلاقة بين مقوّمات الشخصية الإسلامية الفكريّة والسلوكيّة (الإيمان والعمل)، وبيان المنهج القرآني الذي يجب أن يُتبع في عمليّة الربط بين هذين المقومين لبناء شخصية إسلاميّة متميّزة ينضبط فيها السلوك وَفق معطيات الإيمان. وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لا بدّ من معرفة دور العقيدة في بناء السلوك وتوجيهه.

المطلب الأول: أهميّة العقيدة في بناء المقوّم السلوكي وضبطه:

إنّ التلازم بين السلوك والاعتقاد موجود عند البشر عامّة، فالسلوك الظاهر عند جميع البشر – بخلاف البهائم– مرتبط بما لديهم من إيمان باطن، بغض النظر عن صحة ذلك الإيمان أو بطلانه. وبموجب العقيدة الإيمانية كذلك؛ يجري تحديد غايات وأهداف السلوك الإنساني. يقول ابن تيمية موضحاً هذا التلازم: "إذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة، كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة، بل يلزم من وجود هذا كاملاً وجود هذا كاملاً، كما يلزم من نقص هذا نقص هذا، إذ تقدير إيمانٍ تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل، كتقدير موجب تامّ بلا موجبه، وعلة تامة بلا معلولها، وهذا ممتنع"[68]. فالعمل والإيمان قرينان، لا يصلح كلّ واحدٍ منهما إلا مع صاحبه، قال النبي ﷺ: "تَعَلَّمُوا ما شئتُم أَنْ تَعَلَّمُوا، فلن ينفعَكُم اللَّهُ ﷻ حتَّى تَعْمَلُوا بما تَعْلمون"[69].

يقول عبد المجيد النجار في بيان أهميّة الربط التكاملي بين الإيمان والعمل في الشخصيّة الإسلامية: "التدين بالإسلام يكون بكيفيتين متلازمتين: أولاهما: الإيمان بحقّانية المنظومة النظرية التي جاء بها البيان الديني في شرحه للوجود القائم على إقرار توحيد الألوهية، وفي إخباره بالرسل الهداة، وإخباره بالحياة الأخرى، التي يتمّ فيها حساب الإنسان وجزاؤه. والإيمان كذلك بحقانية جملة التعاليم، التي بشّر بها الوحي المحمدي، كما جاءت في القرآن الكريم وفي السنة الثابتة. والثانية: التطبيق العملي لما جاء في هديّ الدين من الأوامر والنواهي، المتعلقة بالسلوك في معناه الشامل. وإنّ العلاقة بين هاتين الكيفيتين علاقة تلازم ... وأيمّا قصور في هذين الوجهين، يعتبر إخلالاً بالتديّن في جانب العقيدة"[(70)].

لذا؛ فإنّ الإيمان بفكرة ما، يعنى وجوب التصديق بها تصديقاً جازماً مطابقاً لواقعها، وبهذا تتحول من نظريّة إلى حقيقة تؤثر في السلوك. أي تتحول من مجرد معلومة ذهنيّة؛ إلى مفهوم إيماني مؤثر في العمل. فيُصبح الإيمان بمثابة الآمر الناهي على سلوك الإنسان قال تعالى: **﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**[البقرة: 93]. فالأفكار إذا بقيت كمعرفة في ذهن الإنسان دون أن تؤثر في سلوكه؛ فهي مجرد معلومات فقط. أمّا إذا انتقلت إلى حيّز التأثير في السلوك، بحيث يتمّ الربط المباشر والتفاعل المؤثّر بينها وبين السلوك، فتصبح موجهاً ومنظماً له، بحيث لا يخالف الإنسان بسلوكه أفكاره؛ عندها تتحول الأفكار إلى مفاهيم ضابطة وموجهة للسلوك. فالمفهوم: له شرطان: إيمانٌ ضابطٌ للسلوك. يدلّ عليه قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾**[فصلت: 30]. (قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)= إيمان، (ثُمَّ اسْتَقَامُوا)= سلوك. وهو ما يُعبّر عنه بـ: "مَا وَقَرَ فِي الْقَلْب، وَصَدَّقَهُ الْعَمَل"[(71)].

وعليه، فإنّ العقيدة الإسلامية تشكّل القاعدة الفكريّة التي تمدّ المسلم بتصديقات جازمة عن الحقائق المتعلقة بالوجود والموجِد ﷻ والعلاقة بينهما. وبهذه القاعدة الفكرية اليقينية، يستطيع المسلم تكوين مفاهيم صحيحة يحكم بها على جميع الأشياء والأفعال التي يتعامل معها، وبمجموع تلك المفاهيم تتكوّن عقليّته. ومن جهة ثانية فإنّه يجب عليه أن يضبط وينظم نفسيته (الميول والسلوك) بتلك المفاهيم المستمدّة من العقيدة. وهذا يعني؛ وجوب استحضار المفاهيم المنبثقة عن العقيدة الإسلاميّة لديه قبل قيامه بأي عمل من الأعمال.

المطلب الثاني: مثال توضيحي يبيّن كيفية بناء الشخصية الإسلامية باقتران مقوماتها:

إنّ عمليّة بناء الشخصيّة الإسلامية المتميّزة، تتمّ وَفقَ خُطوات منهجيّة منظّمة ومتسقة، تسير تلك الخطوات في مسارين متوازيين لا يتخلّف أحدهما عن الآخر.

مسار المقوّم الفكري، ويشمل: (مصدر التفكير "الوحي"، الحكم على الواقع "فكر"، وينتهي بالمفاهيم المكوّنة للعقليّة).

ومسار المقوّم السلوكي، ويشمل: (الطاقة الحيويّة، دوافع السلوك، الميول، وينتهي بالأعمال). فإذا تكاملت خطوات المسارين المذكورين؛ نتج بالضرورة عن اقترانهما في رأس الهرم: البناء المتكامل للشخصيّة الإسلامية المتميّزة. ينظر شكل رقم (1).

فمثلاً إذا أراد المسلم التعامل مع واقعٍ ما، ولنفترض أنّ ذلك الواقع هو (الميل لإشباع جوعة أحد مظاهر غريزة حفظ النوع وهي الميل إلى الجنس الآخر). فكيف يتعامل مع هذا الواقع وَفق سلوك مطابقٍ للحالة المعيارية التي تقاس عليها الشخصيّة الإسلاميّة المتميّزة؟

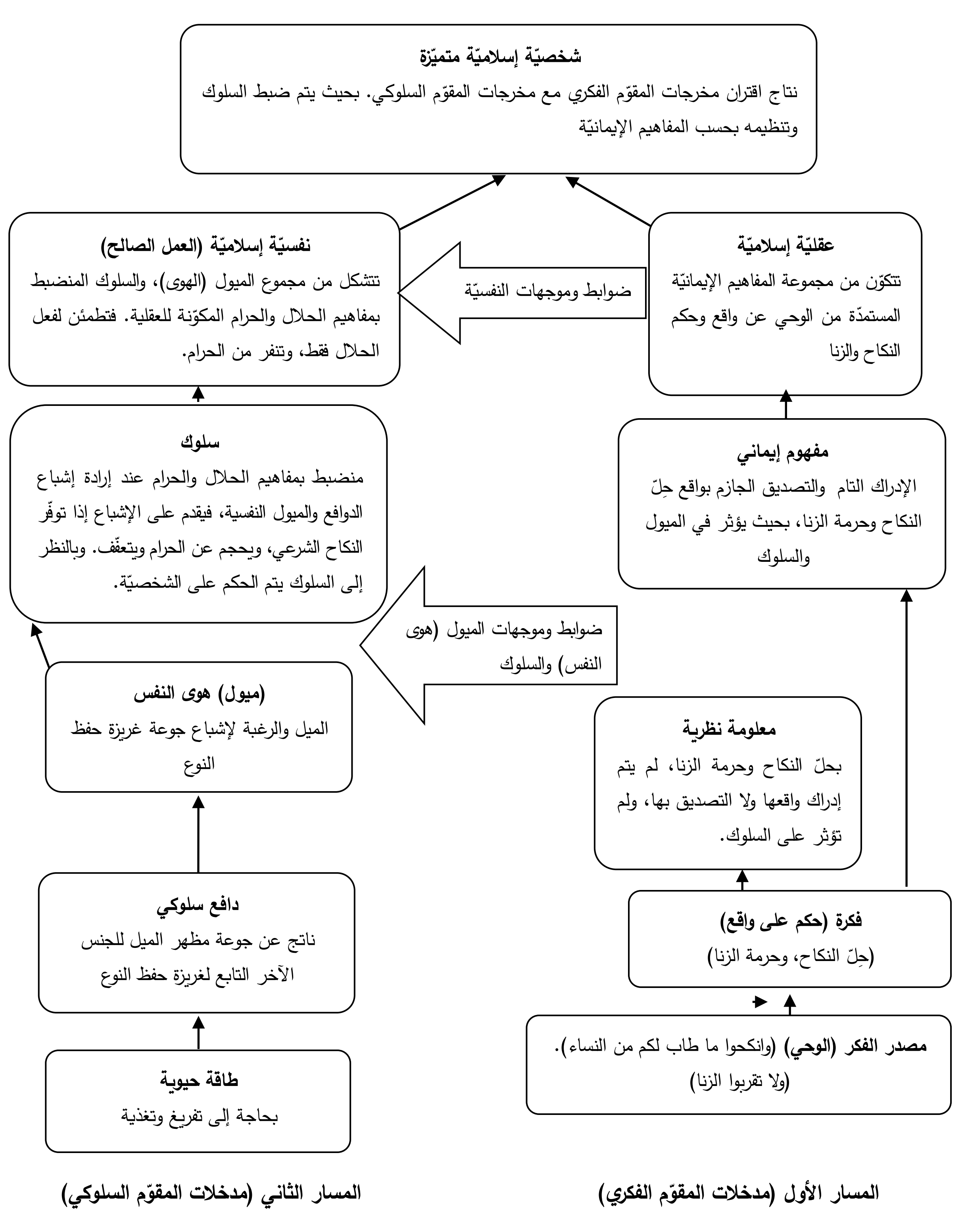
الجواب: إنّ أول الخطوات التي يجب عليه القيام بها هي النظر إلى مصدر التفكير (الوحي)، فيجد لإشباع هذه الجوعة طريقين: طريق النكاح الشرعي، وهو حلال، لقوله تعالى: **﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾**[النساء: 3]. وطريق الزنا، وهو حرام.

لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾[الإسراء: 32]. فيتضح له أنّ (الفكر) الحكم على الواقع المذكور، المستمد من مصدرية القرآن الكريم؛ يقضي بحِلّ إشباع تلك الجوعة بالنكاح الشرعي فقط، ويقضي بحرمة إشباعها عن طريق الزنا.

وهذا الكشف عن حكم حلّ النكاح وحرمة الزنا، لا يتعدّى أكثر من كونه (فكرة)، أي معلومة يتساوى في الوصول إلى معرفتها جميع النّاس. فإذا أدركَ ذلك الشخص واقعَ حِلّ النكاح وحرمة الزنا، وصدّق به تصديقاً جازماً مؤثراً في سلوكه عند الإشباع، عندها تتحول تلك الفكرة إلى مفهوم إيماني مُدركٌ واقعه. وبموجب هذا المفهوم يضبط سلوكَه وينظمه تجاه ذلك الواقع. ويصبح لديه بواسطة مفهوم الحلال والحرام معيار ضابط للسلوك من حيث الإقدام والإحجام على الفعل. فإذا تيسّر له إشباع ذلك الميل بطريق الحلال أقدم، وإذا تعذر الحلال أحجم وتعفّف. وبهذه الطريقة الرابطة بين المفاهيم المكوّنة للعقليّة المسلمة وبين الميول والسلوك المكوّنة للنفسيّة؛ تتحكّم مفاهيم الحلال والحرام بطريقة إشباع جوعات الغرائز والحاجات، وتُضبط الميول والأهواء النفسيّة وَفق إرادة الله ﷻ. ينظر الشكل رقم (1):

هذه هي طريقة تكوين الشخصيّة الإسلامية وبنائها المتميّزة، تلك الطريقة التي توصلنا إلى تلمّس خطواتها ورسمها من خلال تدبّر الآيات القرآنية الكريمة. وهي الطريقة نفسها التي كان يسير عليها النبي ﷺ في بنائه لشخصيّات كبار الصحابة ﷺ من السابقين في الإسلام. وهي تصلح لأن تُتخذ معياراً يقيسُ عليها المسلم مدى قربه وبعده من تحقيق صفات الشخصيّة الإسلامية المتميزة التي أراد الله له أن يكون عليها، خاصّةً في هذا العصر الذي انحرفت فيه البوصلة الفكريّة والسلوكيّة لدى كثيرٍ من المسلمين عن المنهج الإسلامي القويم؛ فتميّعت شخصياتهم واضطربت، حتى غدا الفكر لديهم منفصلاً عن السلوك، وأصبح الإيمان لا أثر له في العمل.

مخرجات مقوّمات الشخصيّة الإسلاميّة المتميّزة



مخطط مدخلات بناء الشخصيّة الإسلاميّة المتميّزة ومخرجاتها

الشكل رقم (1)

الخاتمة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى وبعد:

يسرّ الباحث في ختام هذه الدراسة؛ أن يجمل أهم النتائج والتوصيات بالآتي:

أولاً: حدّد القرآن الكريم مقومات الشخصية الإسلامية بعنصرين رئيسين:

1) **الإيمان.** ويتعلق بالجانب العقدي والفكري الذي يتمّ بموجبه تكوين المفاهيم عن الوجود والموجِد ﷻ، والعلاقة بينهما. وبهذا الجانب يتم بناء العقليّة في الشخصيّة الإسلامية وتنميتها وضبطها.
2) **العمل الصالح.** ويتعلّق بالجانب السلوكي: (دوافع، ميول، أفعال). وبهذا الجانب يتمّ بناء النفسيّة في الشخصيّة الإسلامية، وكيفية ضبطها بمقتضى الإيمان.

ثانياً: العلاقة بين العقيدة والتفكير، علاقة بينيّة قائمة على التلازم والتأثّر والتأثير. فالتفكير لازم لبناء العقيدة وتقريرها، وذلك بواسطة النظر في ما ورد من حقائق عقديّة في الآيات التنزيلية ومقارنتها في ما بثّ الله تعالى في الآيات الكونية والأنفسية من عجائب قدرته وفائق صنعته. ومن جانبٍ آخر، فإنّ العقيدة تضبط عملية التفكير، وتحميها من الانزلاق في متاهات التقليد والظنون والهوى والأوهام والأساطير.

ثالثاً: وضع القرآن الكريم مجموعة قواعد ضابطة ومنظمة للسلوك، تتلخّص بالآتي:

1) تحديد غاية السلوك.
2) تقييد السلوك بمقياس الحلال والحرام.
3) علاج ثغرات السلوك بالتوبة والتعزيز.

رابعاً: إنّ غايات السلوك من منظور قرآني؛ لا تقف عند حدّ إشباع جوعات الغرائز والحاجات فقط، وإنّما تتعدّى إلى تحقيق مرضاة الله ﷻ. وذلك بتجاوز حدود الحياة الدنيا وربط السلوك بمآله المترتب عليه في الآخرة.

خامساً: إنّ عمليّة بناء الشخصيّة الإسلامية؛ تتمّ وَفقَ خُطوات منهجيّة منظّمة ومتسقة، تسير في مسارين متوازيين.

1) **مسار المقوّم الفكري**، ويشمل: (مصدر التفكير "الوحي"، والحكم على الواقع "فكر"، وينتهي بالمفاهيم المكوّنة للعقليّة).
2) **ومسار المقوّم السلوكي**، ويشمل: (الطاقة الحيويّة، ودوافع السلوك، والميول، وينتهي بالأعمال). فإذا تكاملت خطوات المسارين المذكورين؛ نتج بالضرورة عن اقترانهما في رأس الهرم: البناء المتكامل للشخصيّة الإسلامية المتميّزة.

سادساً: إنّ الشخصيّة الإسلامية من منظور قرآني، ليست ملائكية معصومة عن الأخطاء، فقد تقع بتقصير أو غفلة أو خطأ ينتج عنه ثغرات في السلوك. لهذا؛ فقد عالج الإسلام مسألة ثغرات السلوك في الشخصية الإسلامية بأمرين:

1) فتح باب التوبة.
2) التعزيز السلوكي عن طريق نظرية العقاب والثواب.

التوصيات:

يتوجه الباحث إلى القائمين على المؤسسات التعليميّة والتربوية والثقافية في البلاد الإسلامية، للاستفادة من مخطط مدخلات بناء الشخصيّة الإسلاميّة المتميّزة ومخرجاتها (الذي يُعدّ مُلخصاً لمحتوى هذه الدراسة)، وذلك من خلال تصميم مناهج وبرامج تربويّة (نظرية وتطبيقية)، تَعرِض وتَشرح للناشئة والشباب خطوات ذلك المخطط، ثمّ القيام بتدريبهم عملياً

على كيفية بناء مقومات الشخصيّة الإسلامية المتميزة (الفكريّة والسلوكيّة)؛ وَفق منهج القرآن الكريم والسنّة النبوية، وبالتالي تعويدهم على ضبط سلوكهم وتوجيهه بمقتضى العقيدة الإسلاميّة والفكر الإسلامي الصحيح. مما يساعد بشكلٍ كبير على حلّ الإشكالية المتفشيّة بين المسلمين في هذه الأيام، والمتمثلة بالانفصال ما بين الفكر والسلوك، وبالتالي الانفصال بين الإيمان والعمل.

وفي الختام؛ هذا ما وفقني الله إليه، فما كان صواباً فبتوفيقه تعالى، وما جانب الصواب فمن نفسي وأستغفر الله. سائلاً المولى ﷻ أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(1) الطبري، **جامع البيان**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ، ج21، ص190.

(2) أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، **المسند**، مؤسسة قرطبة، القاهرة. حديث رقم: 24645.

(3) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت 774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، ط2، 1420هـ، ج7، ص64.

(4) ابـن فارس، أحمد ابن فارس (ت 395هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكـر، ط1، 1979م، مادة: شَخَصَ.

(5) أبو جادو، صالح محمد علي، **سيكولوجية التنشئة الاجتماعيّة**، دار المسيرة، عمان، ط1، 1998م، ص313.

(6) نقلاً عن: محمد خليفة بركات، **تحليل الشخصية**، مكتبة مصر، ط3، ص8.

(7) مصطفى عليان، **بناء الشخصيّة في القصة القرآنية**، دار البشير، عمّان، ط1، 1992م، ص11.

(8) محمد محمد إسماعيل، **الفكر الإسلامي**، دار الوراقة، بيروت، ص102. وينظر: النبهاني، تقي الدين، **الشخصيّة الإسلاميّة**، ط3، 1991م، ج1، ص5 وما بعدها.

(9) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج8، ص479.

(10) جميع هذه المواضع ورد فيها الإيمان متقدماً على العمل الصالح، ما عدا خمس مواضع تقريباً ورد فيها العمل الصالح متقدّماً على الإيمان، مع جعل الإيمان شرطاً لاعتبار العمل وقبوله.

(11) أخرجه ابن أبي شيبة في **المصنف**، تحقيق: محمد عوامة، د(ط، ت)، كتاب الإيمان والرؤيا، حديث رقم: 30988.

(12) الشربيني، محمد بن أحمد، **السراج المنير**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ج4، ص428.

(13) السمالوطي، نبيل، **التنظيم المدرسي والتحدي التربوي**، دار الشروق، جدّة، ط2، 1406هـ، ص198. بتصرف قليل.

(14) محمد رشيد رضا (ت 1354هـ)، **تفسير المنار**، الهيئة المصرية العامة للكتب، 1990م، ج1، ص388-389. بتصرّف قليل.

(15) الخازن، علي بن محمد، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ، ج1، ص82.

(16) أخرجه ابن أبي عاصم، عمرو بن أبي عاصم الضحاك (ت 287 هـ)، **السنّة**، تحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1400هـ، باب ما يجب أن يكون هوى المرء تبعاً لما جاء به النبي ﷺ، حديث رقم15.

(17) المباركفوري عبيد الله بن محمد (ت 1414هـ)، **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، الجامعة السلفية، نارس (الهند)، ط3، 1404هـ، ج1، ص266.

(18) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وزميله، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م، ج8، ص 386.

(19) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج1، ص208.

(20) الباقلاني، أبي بكر بن الطيب (ت 403 هـ)، **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري،

المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط2، 1421هـ، ص 21.

(21) التفكير المستنير أو المنظومي، هو أرقى درجات التفكير، ويكون من خلال النظر إلى الشيء وفهمه وفهم ما يتعلق به ثمّ الحكم عليه. ويُركّز فيه على العلاقات البينيّة. أي فهم الأشياء والحكم عليها مربوطة بما يتعلّق بها.

(22) يُنظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، **كتاب العين**، تحقيق: مهدي المخزومي وزميله، مكتبة الهلال باب: العين والقاف واللام. وأحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة: عقل. والرازي، محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمد خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1415هـ، مادة: عقل. والأزهري، محمد بن أحمد، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م، باب العين والقاف واللام. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد ت 502 هـ، **المفردات في غريب القرآن**، المكتبة التوفيقيّة، القاهرة، ص345.

(23) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ)، **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية**، تحقيق: موسى سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، ط1، 14058هـ، ص265.

(24) مصطفى حسين عبدالهادي، **منهج التفكير العقلي في القرآن**، مقال على النت، 2007م.

(25) ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط1، مادة: فكر.

(26) ابن فارس، **مقاييس اللغة**، مادة: فكر.

(27) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص386.

(28) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت 505هـ)، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، ج4، ص425.

(29) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص386.

(30) الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق: محمد مرعشلي، دار النفائس، بيروت، ط2، 1428هـ، ص247.

(31) جروان، فتحي عبدالرحمن، **تعليم التفكير**، دار الكتاب الجامعي، الإمارات، 1999م، ص33.

(32) حنايشة، عبدالوهاب محمد إبراهيم، **التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم**، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2009م، ص14.

(33) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج9، ص385.

(34) الرازي، محمد بن عمر ت 606هـ، **معالم أصول الدين**، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992م، ص20.

(35) الراغب الأصفهاني، **مفردات غريب القرآن**، ص 499.

(36) العقاد، عباس محمود، **التفكير فريضة إسلامية**، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، د (ط، ت)، ص9.

(37) ينظر تفاصيل الإحصائية المذكورة: صلاح صالح معمار، **علم التفكير**، دار ديبونو للطباعة والنشر، عمان، ط1، 2006م. ص18-27.

(38) حوامدة، مصطفى محمود، **دور القرآن الكريم في تنمية التفكير المنظومي لدى الإنسان**، من أوراق المؤتمر العربي الثالث حول الاتجاه المنظومي في التدريس والتعليم، جامعة عين شمس، 2002م، ص6.

(39) الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم (ت327هـ)، **آداب الشافعي ومناقبه**، تحقيق د. عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1424هـ، ص207.

(40) الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة، **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، ط8، 1418هـ، ص26.

(41) النيسابوري، مسلم بن الحجاج (ت 241هـ)، **الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، بيروت، كتاب السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، حديث رقم: 2230.

(42) ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751هـ)، **مفتاح دار السعادة**، دار الكتاب العربي، بيروت، ج1، ص187.

(43) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (ت 1376هـ)، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ، ص189.

(44) موريس بوكاي، **التوراة والإنجيل والقرآن بمقاييس العلم الحديث**، ترجمة علي الجوهري، دار المعارف، القاهرة، 1976م، ص144.

(45) ماجد عرسان الكيلاني، **مقومات الشخصية المسلمة**، مكتبة الاستقامة، مكة المكرّمة، ط1، 1996م، ص42-46.

(46) محمد السيد راضي جبريل، **عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة، المنورة، 1421هـ، ص66.

(47) السعدي، **تفسير السعدي**، ص752.

(48) السلمي، محمد بن صامل، **كيف نفسر التاريخ**، مجلة البيان، عدد 50، شوال 1412هـ، إبريل 1992م، ص45.

(49) النجار، عبد المجيد، **دور الفكر الواقعي في النهضة الإسلامية**، بحوث اللقاء الخامس لمنظّمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، نيروبي، 1402هـ، 1982م.

(50) السيد رزق الحجر، **مسائل العقيدة ودلالتها بين البرهنة القرآنيّة والاستدلال الكلامي**، دار الثقافة، القاهرة، 1410هـ، ص73.

(51) الإيجي، عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد، **المواقف**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1997م، ج1، ص151.

(52) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت 256هـ)، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 1424هـ، كتاب التفسير، سورة الطور. حديث رقم: 4854.

(53) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ)، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: أنور الباز وزميله، دار الوفاء، ط3، 1426هـ، ج9، ص212.

(54) الجليند، محمد السيد، **تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1999م.

(55) يُنظر: الفراهيدي، **كتاب العين**، مادة: سلك. وابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة: سلك. وابن منظور، **لسان العرب**، مادة: سلك.

(56) مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، دار عمران، القاهرة، ط3، 1985م، مادة: سلك.

(57) النبهاني، تقي الدين، **الشخصية الإسلامية**، ج1، ص 5.

(58) عابد توفيق زين العابدين، **النفس الإنسانية في ميزان القرآن الكريم والكتاب المقدّس**، دار التضامن، بيروت، 1996م، ص94-95.

(59) العاني، محمد يوسف، **الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي**، دار الفرقان، عمّان، ط1، 1998م، ص134.

(60) فرج عبدالقادر طه، **أصول علم النفس الحديث**، دار المعارف، القاهرة، 2000م، ص325.

(61) السعدي، **تفسير السعدي**، ص514.

(62) أخرجه الترمذي في **السنن**، كتاب: الزهد، باب: الكفاف والصبر، حديث رقم 2346.

(63) أخرجه البخاري في **الصحيح**، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، حديث رقم 1905.

(64) أخرجه مسلم في **الصحيح**، كتاب المنافقين، حديث رقم 2784.

(65) ينظر: تقي الدين النبهاني، **الشخصيّة الإسلاميّة**، ص16-18. بتصرّف.

(66) ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت 273هـ)، **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، حديث رقم 4250.

(67) جمال الخطيب، **تعديل السلوك**، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ط1، 1987م، ص82.

(68) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج7، ص582.

(69) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت 463هـ)، **اقتضاء العلم العمل**، تحقيق: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط4، 1397هـ، ص20، حديث رقم 7.

(70) النجار، عبدالمجيد، **في فقه التديّن فهماً وتنزيلاً**، قطر، د (ط، ت)، ج2، ص12-13. بتصرف قليل.

(71) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ)، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، تحقيق: مركز هجر للبحوث، دار هجر، مصر، 1424هـ، ج5، ص36.